

اطفال الشوارع في بغداد مدخل استطلاعي

أ.د ناهدة عبد الكريم

حافظ

جامعة بغداد/ كلية

الاداب

المقدمة

الكتابة أو البحث في موضوعات اجتماعية معينة ينطوي على صعوبات بالغة . أما لان المجتمع قد وضع على هذا الموضوع او ذاك خطوطا حمراء يصعب اختراقها ، مما يجعلها خارج إمكانية البحث أو الشرح أو التفسير ، أو لان تلك الموضوعات تعيش وتتواصل ، وراء كواليس الحياة الاجتماعية وداخل سراديبها ، فلا ينضح من معلومات إلا النزر اليسير وفي كل الأحوال فان الباحث لا ينبغي ان يتردد حتى وان انتهى بحثه إلى مجرد إثارة الاهتمام بالظاهرة سواء من جانب المواطنين أو المسؤولين . إن المشكلة التي تتناولها هذه الصفحات مهمة جداً نظراً لما تنطوي عليه من جوانب إنسانية ،ومن هدر للموارد البشرية ، ولما تعبر عن فشل ذريع سواء على نطاق الأسرة أو المؤسسات الوقائية - المدرسة - أو الإصلاحية ، ذلك أن أطفال الشوارع يمثلون ذروة إخفاق الأسرة في التربية . كما إنهم فيما يوجهونه من مخاطر في بؤر الانحراف المظلمة وما يتعرضون له من عنف وإساءة ، وما يمارسونه في تناول للمخدرات ، ومن أفعال جنسية انحرافية ، بعضهم على رأس أولويات العمل الاجتماعي .

وقد تناولنا في دراستنا الاستطلاعية هذه عدة نقاط متكاملة :

١. التعريف بأطفال الشوارع خصوصاً من زاوية التشريع العراقي وكذلك من زاوية الأدبيات الاجتماعية العراقية والدولية.
 ٢. حجم المشكلة الحالية .
 ٣. أطفال الشوارع بين ثنائية البيت المغلق والشارع المفتوح، ويتضمن تحليلاً للثقافة الفرعية المضادة التي تحكم حياة أطفال الشوارع.
 ٤. بعض خصائص أطفال الشوارع، وقد طرحناها وناقشناها من خلال تلخيص نتائج عدد من الدراسات.
 ٥. وأخيراً تسألنا ما العمل ؟
- نأمل أن تكون هذه الصفحات مفيدة للمختص وللقارئ العام أيضاً ذلك أن هدفها الرئيس هو إثارة الاهتمام بالمشكلة على النطاقين الرسمي والشعبي .

أولاً: - من هم أطفال الشوارع ؟

لم يرد في التشريع العراقي مفهوم أطفال الشوارع، بل وردت مصطلحات أخرى مثل التشرد (المتشرد)، وسيئ السلوك، والجانح ويبدو إن أقرب مصطلح إلى مفهوم أطفال الشوارع هو: التشرد و المتشردون. وقد حدد المشرع العراقي الحالات التي يعد فيها الصغير أو الحدث مشرداً وهي:

١. إذا وجد متسولاً في الأماكن العامة أو تصنعة الاصابة بجروح أو عاهات أو استعمل الغش وسيله لكسب عطف الجمهور بقصد التسول^١.
وهنا نلاحظ التداخل ما بين التشرد والتسول. وكذلك بين التشرد وبين ما سماه المشروع استعمال الغش .

٢. إذ مارس متجولاً صبغ الأحذية، أو بيع السجانر، أو أية مهنة اخرتعرضه للجنوح، وكان عمره اقل من ١٥ سنة. (٢) والواقع أن مهنة صبغ الأحذية، قد أصبحت شائعة، وخصوصاً بسبب الظروف المتدهورة للعائلة العراقية، خلال السنوات الماضية، والتي أدت بدفع آلاف الأطفال إلى سوق العمل الهامشي، بما في ذلك صبغ الأحذية. وكان تقرير دولي أشار عام ١٩٩٥ إلى الأطفال المنتشرين في شوارع العراق وحتى العاصمة_ وهم يبيعون أشياء أو حاجات صغيرة، عند الإشارات الضوئية. كما أشار تقرير آخر لليونيسيف، إلى أن تدهور الحياة الأسرية، ينعكس على الأطفال، ويجعلهم ضحايا العنف. (٣) وبناء على ذلك فإن معيار ممارسة صبغ الأحذية لم يعد دقيقاً.

٣. إذا لم يكن (للصغير أو الحدث) محل إقامة معين، واتخذ الأماكن العامة مأوى له (٤) وربما كان هذا المعيار أوضح من غيره في تشخيص حالة التشرد .

٤. إذا ترك منزل وليه أو المكان الذي وضع فيه بدون عذر مشروع. (٥)

^١ قانون رعاية الأحداث رقم (٧٦) لسنة ١٩٨٣ - المادة (٢٤)، الفقرة (أ)

^٢ نفس القانون / نفس المادة / الفقرة (ب)

^٣ د. كريم محمد حمزة، الحصار الاقتصادي ومشكلة الفقر (بغداد: آذر، ١٩٩٩) ص ٢٠-٢٢

^٤ قانون رعاية الأحداث - المادة (٢٤)، الفقرة (ج)

^٥ نفس المصدر، الفقرة (هـ)

وقد لاحظ الباحثون أن عبارة (ترك منزل وليه) غير واضحة وينبغي إن تصبح كما يأتي :

(إذا اعتاد ترك منزل وليه)، لأنه ليس من أن يكون الصغير أو لحدث مشرداً، إذا ترك منزل وليه، ولمدة قصيرة يوماً أو يومين ، وقد يكون ذلك بسبب تعسف من كان يسكن معهم ، أو قسوتهم وإهمالهم إياه. وقد أشارت بعض قوانين الأحداث العربية إلى (اعتیاد الهرب من البيت) (٦).

٥. إذا مارس الصغير أية مهنة أو عمل مع غير ذويه .

ويلاحظ إن المشروع استثنى الأحداث واقتصر على الصغار، وهذه الفقرة واسعة جداً .. لأن نسبة كبيرة من الصغار ستكون في عداد المشردين ، إذا التزمنا بهذا النص ، لأن نسبة كبيرة منهم يعملون مع غير ذويهم .. كذلك لم تتطرق الفقرة إلى عمل الصغار إذا كان لحسابهم الخاص (٨) وهكذا فإن المشروع العراقي لم يستخدم مفهوم (أطفال الشوارع) لكن المؤشرات التي أوردها عن التشرّد توحى بذلك المفهوم . كذلك لا نجد في البحوث المنشورة في العراق منذ مطلع السبعينات دراسة تحمل عنوان أطفال الشوارع ، باستثناء دراسة واحدة ، حملت عنوان (الأطفال العاملون في شوارع بغداد) (٩) أما على صعيد الأدبيات الدولية ، فإن مختصاً مثل " خوان سومافيا " المدير العام لمنظمة العمل الدولية (ILO) ، استعمل مصطلح (الأطفال الضائعون) وأشار إلى حالات وأمثلة عديدة ، مثل العمل الشاق تحت ظروف سيئة و الإجبار على البغاء وسوء التغذية وغيرها دون أي إشارة إلى (أطفال الشوارع) (١٠) . غير إن مقدمة تقرير مؤتمر (هامبورج) العالمي عن الطفولة ، أورد جملة (كارثة باسم أطفال الشوارع) . والواقع إن هذا المصطلح أطلقه لأول مرة الصحفيون الغربيون في عقد الثمانينات ، وهو يطلق عادة على المجاميع لا على الأفراد . وتعرفه منظمة اليونسيف ، بأنه يشمل كل طفل يقل عمره عن (١٧) سنة ، ولا يلقي دعماً ورعاية مادية وعاطفية ونفسية من عائلته . ويعرفه آخر بأنه يعني الأطفال الذين يقيمون بصورة دائمية بدون حماية ، أو رقابة أو إشراف من جانب أشخاص راشدين أو مؤسسات ترعاهم ، وتتبنى منظمة سويسرية مصطلح (الأطفال في الشارع) ، بدلاً من أطفال الشوارع ، لأنه يجمع بين كل الأطفال ممن يعيشون على قارعة الطريق ، سواء طوال اليوم أو لساعات محدودة منه ، وهو بذلك يشمل المشردين أو العاملين في الشارع أو المضطرين للدعارة . أو هو يعني الأطفال بلا مأوى ، بحيث تشمل لفظة (المأوى) ، كافة مفاهيم الرعاية والحماية .

٦. جعفر عبد الأمير علي الياسين ، التشرّد وانحراف سلوك الصغار و الأحداث في العراق ، دراسة ميدانية في علم الاجتماع الجنائي ، أطروحة دكتوراه غير منشورة (بغداد :كلية الآداب ، ٢٠٠٢)

٧. قانون رعاية الأحداث ، مصدر سابق ، المادة (٢٤) الفقرة ثانياً .

٨. جعفر عبد الأمير الياسين ، مصدر سابق ، ص ١١٤

٩. Dr.K. Hamazaowd ,Dr.Yassea ,A, Children Working in Baghdad Streets ,Baghdad ,2003

١٠. خوان سومافيا ، الأطفال الضائعون ، في نشرة مسيرة الأمم /٢٠٠٠/ مكتب اليونسيف /عمان .

وفي الأردن استبدل المصطلح بمصطلح آخر هو (الأطفال المتسولون والمتشردون ١١) .

وفي اعتقادنا إن هناك خلطاً كبيراً ما بين أطفال الشوارع و المتسولين ، والأطفال العاملين في الشوارع ، والأيتام وغيرهم من الفئات المقاربة . وفي اعتقادنا إن المعيار الأساسي أو العنصر الأساسي في أي تعريف إجرائي للمشرد ، هو انه لا يملك محل إقامة محدد معترف به اجتماعياً ، ولذلك فهو يأوي إلى أي مكان آخر من الأماكن العامة في المجتمع ، وبالتالي فإن كثيراً من الأطفال الذين تراهم في الشوارع مثل باعة سجانر المفرد أو باعة أكياس النايلون في الأسواق ، أو ماسحي الأحذية ، هم ليسوا مشردين بالضرورة ، كما أنهم ليسوا

أطفال شوارع بالمعنى الشائع . ومن ثم يبدو مفهوم (أطفال الشوارع) مظلاً إلا إذا نظرنا إليه كعنوان عام يمكن أن يضم فئات من الجانحين و المنحرفين ، وكذلك سيئي السلوك مثل الإبيغاء من الذكور ، والذين ليس لهم محل إقامة معترف به اجتماعياً ، فضلاً عن فئات من غير الجانحين ، ولكنهم من المعرضين للجنوح ، مثل أولئك الصغار الذين يعملون لدى أناس غرباء أو ماسحي الأحذية إن أطفال الشوارع بالنسبة لدراستنا هذه هم في الواقع المشردون الذين تركوا أسرهم واتخذوا بدلاً من بيوتهم ملاجئ يتواجدون فيها لأغراض النوم أو للاتصال بزملاء لهم ، أو للاختباء عن أعين رجال الشرطة ، وقد يمارس بعضهم التسول ، أو العلاقات البغائية ، أو السرقة ، أو غيرها من الأفعال ، إلا إن الأصل أو قاعدة التعريف هي الانقطاع الجزئي أو التام ، عن الأسرة ، واللجوء إلى مكان آخر غير البيت

ثانياً: - حجم المشكلة

في الإحصاء الجنائي ، هناك دائماً أرقام سوداء (Dark Figures) توشر حقيقة أن ما نعرفه عن ظاهرة إجرامية أو انحرافية هو ذلك ، الذي يسجل في تقارير الشرطة ، أو في سجلات المحاكم المختصة أو السجون . ولا شك أن هذه المعرفة قاصرة إلى حد كبير ، لأنها لا تقدم الصورة الحقيقية لحجم الظاهرة ، يضاف لذلك ، أن الحصول على الأرقام المسجلة نسبياً ليس متاحاً دائماً ، أي أن الجهات الحكومية المعنية غالباً ما تعد تلك الأرقام سرية ، وترى في إذاعتها أو نشرها إساءة للمجتمع أو تشويهاً لصورته . ولذلك نجد إن الدراسات التي تناولت التسول أو التشرد ، اعتمدت في بياناتها على عينات صغيرة تمثل نزلاء المؤسسات الإصلاحية ، ولا نجد إلا القليل من الدراسات التي تناولت حالات من الميدان (١٢). إلى جانب أن التكيف القانوني للحالات قد يكون أذ توضع بعض الحالات في فئة (المتسولين) مثلاً وليس في فئة أطفال الشوارع بل إن الفئة الأخيرة قد لا تكون موجودة ضمن التصنيف المعمول به .

١١ . الجمعية العراقية للتنمية والأعمار ، أطفال الشوارع في بغداد - شباط / ٢٠٠٤

١٢ . جامعة الدول العربية ، الأمانة العامة ، إدارة الأسرة والمرأة والطفولة / قسم الطفولة / خطة العمل العربية الثانية للطفولة / ٢٠٠٤-٢٠١٥

ومع ذلك فإن هناك أكثر من سبب يدعو للقول بأن مشكلة الصغار والأحداث من المشردين وسيئي السلوك والجانحين هي في حالة تفاقم كجزء أو كنتيجة لعدة عوامل متداخلة ، لعل أولها الهجرات من الأرياف إلى المدن ، واتساع دائرة التحضر بسرعة فائقة ، وانتشار حالات التفكك الأسري ، وخصوصاً في الأسرة الممتدة ، إلى جانب الحروب والنزاعات والصراعات ، ضعف قيم التكافل الاجتماعي ، وانتشار الفقر والبطالة ، وتعمق حالات الخصام ما بين الدولة والسوق والمجتمع ، وضعف البرامج و الإجراءات الإصلاحية ، فضلاً عن قلة البحوث المعمقة . ثمة أدلة أخرى على خطورة المشكلة ، فقد وضعت جامعة الدول العربية ، موضوع (حماية المشردين في الشوارع) ضمن اهتماماتها للسنوات العشرة القادمة وتزدحم شبكة المعلومات الدولية بمقالات وتحليلات عن ظاهرة أطفال الشوارع. (١٣) والى جانب ما أكدت عليه اتفاقية حقوق الطفل ومنها حقه في الحفاظ على هويته ، بما في ذلك جنسيته واسمه

وصلاته العائلية . فضلاً عن حمايته من كل أشكال العنف والضرر والإساءة البدنية أو العقلية أو الإهمال وإساءة المعاملة والاستغلال بما في ذلك الإساءة الجنسية . وكذلك وقاية الأطفال من المخدرات والانتهاكات الجنسية والاستغلال في الدعارة وغيرها .. (١٤) كما أشار آخر إلى المجالات الحاسمة التي حددها المؤتمر العالمي للمرأة عام ١٩٩٥، إلى الطفلة الأنثى على نحو الخاص .(١٥) في العراق بدت المشكلة أكثر وضوحاً، وأعظم خطراً بعد أن انهارت مؤسسات الدولة ذات الصلة بالموضوع ،ونعني بها دور الملاحظة والإصلاحات ودار الرحمة .وتوقف قضاء الإحداث عن العمل ،إلى غير ذلك مما يترتب على ذلك الانهيار وفسح المجال للمنظمات غير الحكومية لكي تلعب دوراً مهماً في مواجهة غياب الدولة .ومن هذه المنظمات ما هو وطني مثل منظمة حماية الطفولة الكردستانية ،والجمعية التربوية لإنقاذ الأطفال المشردين ،ومنها ما هو أجنبي مثل منظمة أطفال العالم الفرنسية ،ومجلس الكنائس النرويجية ، وغيرهما . ومن الأدلة الأخرى على أن في العراق (مشكلة أطفال الشوارع) ما كتبه الصحف العراقية الكثيرة عن المتسولين ،ومدمني المخدرات وغيرهم ، بهدف التحذير من احتمالات اتساع نطاق المشكلة بشرياً وجغرافياً و الواقع إن أية ملاحظة ميدانية عابرة تمكن للباحث إن يقوم بها في بعض الأماكن مثل : منطقة البتاوين ، وبعض أماكن شوارع أو شارع أبو نؤاس ، ومنطقة دور السينما في أباد الشرفي ، فضلاً عن المناطق القريبة من المرافد المقدسة والكراجات وتقاطعات الشوارع وغيرها مثل هذه الملاحظة توفر للباحث أدلة على أن هذه الظاهرة هي في اتساع . بل إننا نستطيع القول أن هناك عوامل تمارس التشرذم والتسول ، وتقوم بعملية توزيع للنشاط فيما بينها وخصوصاً في التقاطعات الرئيسية . وبالتالي يمكن القول وكما اشرنا سابقاً ان الأرقام التي لدينا لا تعبر عن حجم المشكلة على صعيد الواقع الميداني .

١٣ . من ذلك مثلاً ما نشرته صحيفة الرياض السعودية على موقعها

WWW.alriydh .np.Com

يوم الأحد (١٢) رمضان (١٤٢٣) ، بعنوان : أطفال المناديل وبنات إشارات المرور ، مسؤولية ص ٥٠ .
١٤ . اليونيسيف اتفاقية ، حقوق الطفل والبروتوكول الاختياريان .
١٥ . راجع : الأمم المتحدة ، تقرير المؤتمر العالمي الرابع المعني بالمرأة /بيجين/١٥/أيلول /سبتمبر /١٩٩٥ .

يبين الجدول التالي أعداد النزلاء من المشردين في المؤسسات الإيوائية الموجودة حالياً في العاصمة بغداد

جدول رقم (١) ١٦

أعداد النزلاء في مؤسسات إيواء المتشردين ببغداد(*)

ت	اسم الدار	الفئات العمرية والجنس	الطاقة الاستيعابية	الموجود الحالي	وجود الملاك التربوي	خبيرة الملاك	جهة الدعم الحالية	حالة التبيان
١	دار الرحمة للأيتام في الرشاد(*)	١٨ - ٦ سنة (مختلطة)	غير معلومة	٢٢ - ذكور	١٠ متطوعين	غير متخصصة باستثناء أساتذيين في علم النفس	الحوزة العلمية في النجف الاشراف	رديئة

متوسطة	اليونيسيف +منظمة أطفال العالم	ذو اختصاص في البحث الاجتماعي	١٥ باحث وباحثة	٣٠ ذكور ٢٠ إناث مج = ٧٠	٧٠	١٦-٦ /ذكور ٦- /إناث ٢٠	٢. بيت الطفل للمشردين في المسيح(**)
جيدة	منظمة حماية الطفولة الكرديستانية	ذو اختصاص في البحث الاجتماعي	٥	١٨	٢٨	١٧ سنة فما دون ذكور فقط	٣. البيت الأيمن في الوزيرية
متوسطة	الحركة الملكية الدستورية ومتبرعون عراقيون	متطوعون	٧	١٥	١٥	١٠-٢ سنة مختلط	٤. البيت الحنون في رغبة خاتون (***)
ممتازة	منظمة أطفال العالم	-	-	-	٥٠	١٧ فما دون (إناث)	٥. بيت الطفل للمشردين/ مجاور دار التجارة في الاعظمية

١٦. الجمعية العراقية للتنمية والأعمار ، مصدر سابق -جدول ٣-٢.
- (*)- ملاحظات الباحث كانت دار الرحمة ، تسمى دار تأهيل الأحداث وتتبع وزارة العمل . غير إن الجنود الاميركان أطلقوا الموجودين فيها من ذكور وإناث معتقدين أنهم سجناء .
- (**)- في الوقت الحاضر لا تضم إناث بل ذكور فقط
- (***)- يضم في الوقت الحاضر ذكوراً فقط .
- (****)- يضم في الوقت الحاضر حوالي ١ عشرة نزلاء .
- (*****)- أعداد الملاكات غير دقيقة ، وكذلك تخصصاتهم .
- (*)- هناك مركز مفتوح Open -Center في منطقة البتاوين بإدارة وتمويل منظمة ايطالية وأعداد المشردين فيه غير ثابت ، وهو ليس مؤسسة إيوائية

ثالثاً :- أطلال الشوارع .. بين بيوت مغلقة .. وشوارع مفتوحة .

من المؤكد أن بيت الطفل الذي يجتذبه الشارع ويصبح بالتالي مشرداً منقطعاً عن أسرته . هو بيت يعاني من مشكلات معينة يجد الطفل انه غير قادر على مواجهتها أو تغير اتجاهات تأثيرها عليه . وبالمقابل فانه يجد في الشارع متنفساً وما يعتقد انه حالة من التحرر من ضغوط البيت . لكنه- في غالب الأحوال - لا يلقي بنفسه في الشارع مرة واحدة ، بل على نحو متقطع ، حتى ينقطع كلياً وهو خلال ذلك يتلقى تنشئة انحرافية تمكنه من العيش في الشارع ، ضمن جماعة مرجعية من المشردين ، لان الشارع ليس آمناً بالضرورة . كما إن متطلباته معقدة بدءاً من وجبة الطعام إلى مكان النوم ، مروراً برقابة الشرطة ، وقسوة الأحداث الأكبر سناً ، ثم فيما بعد الحاجة إلى المخدر ، وأساليب مواجهة العنف ... وغيرها . وفي اعتقادنا إن أفضل إطار مرجعي لتفسير ظاهرة أطفال الشوارع هو إطار أو نظرية الثقافة الفرعية والأصح : نظرية الثقافة الفرعية المضادة ((Contra - Sub - Culture)) ، ومن المعلوم أن هذه النظرية ظهرت بوضوح في كتاب مشهور في علم الاجتماع الجنائي ، وعلم اجتماع السلوك المنحرف ، وهو كتاب الأولاد الجانحون (*) . تعرف الثقافة الفرعية

بأنها تلك الثقافة التي تتكون داخل المجتمع الواحد ، فتكون ، فتكون بعض الفئات لنفسها ثقافة خاصة ، تختلف عن الثقافة العامة للمجتمع الذي تعيش فيه ، تلك الثقافة الفرعية ، رغم تميزها عن الخط الثقافي العام للمجتمع ، إلا أنها ليست منفصلة عنه تماماً ، بل هي تستمد أصولها منه وترتبط به ارتباطاً عاماً (١٧). غير أن هذا التعريف قد يشمل - على سبيل المثال - الثقافة الفرعية للجماعة الاثنية ، أو لفئة مهنية معينة . أي أن الثقافة الفرعية لا تتقاطع بالضرورة ، أو لا تعادي بالضرورة ثقافة المجتمع الكبير ولذلك اثر " مارشال كلينارد " إن يضيف للمصطلح لفظة (مضادة) ، لكي تشير إلى أن الجماعات المقصودة ، هي جماعات ذات ثقافات تتقاطع مع ثقافة المجتمع الكبير ، منها على سبيل المثال ، ثقافة المقامرين ، وثقافة البغايا ، والجانحين (**) ، وغيرهم ممن يشكلون جماعات ذات ثقافات مضادة لثقافة المجتمع الكبير .

Cohen , A.K, Delinquent Boys: The culture of The Gang (New York : The Free Press -(*) , P.57 , 1955) .

١٧. د. زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (بيروت: مكتبة لبنان ، ١٩٧٨) ص ١٢٤ .
(**) من المهم إن يلاحظ القارئ إن مفهومنا للثقافة يرادف مفهوم طريقة الحياة ، (Way Of Life) وهو بتعبير تايلور TYLOR ذلك الكل المركب من العادات والتقاليد و الأعراف والقوانين واللغة ... الخ، وكل ما يكتسبه الإنسان بوصفه عضواً في جماعة.

وتتمثل العناصر الأولية للثقافة الفرعية في اللغة و القيم والسلوك ، وبناءً على ذلك يمكن الإشارة ، إلى أهم تلك العناصر فيما يلي: (١٨)

- أ- انحراف القيم من وجهة نظر الفاعل ، و اتفاقها مع القراء .
- ب- وجود لغة مشتركة (بين الفاعلين - المرشدين) .
- ج- ارتفاع معدل القيم المشتركة.
- د- يصنف الأفراد ذوي الدرجة العالية في الثقافة المنحرفة باعتبارهم ذوي درجة عالية من الاتفاق على الألفاظ والرموز و الأفعال غير المشروعة.
- هـ- تتمثل الثقافة الفرعية المنحرفة في شبكة التفاعل الحادث بين مجموعات من الأفراد، سواء كانت معلنة أو غير معلنة.

لقد أكدت النظريات التي تناولت السلوك المنحرف والجريمة علناً السلوك الإجرامي ، يكتسب من خلاله عملية الاتصال بالآخرين، أي إن الفاعل لا يتكرر من العدم، بل يتعلم الأطفال ، أن يصبحوا جانحين من خلال صيرورتهم، أعضاء في جماعات ترسخ فيها التصرف الجانح ... وتتضمن عملية تفاعل الطفل مع الأطفال المنحرفين تدريباً على السلوك المنحرف، باعتباره نظاماً فرعياً Sub System ، من المعرفة والعقائد و الاتجاهات فالعملية التي يصبح بموجبها فرداً ما منحرفاً ، لا تختلف عن تلك التي تصبح فيها فرد آخر سويًا . (١٩) وهذا يعني إننا لو جننا بطفل عمره (١٠) سنوات مثلاً ، القينا به في الشارع ، لكي يصبح مشرداً أو واحداً من أطفال الشوارع ، فانه لن يحقق ذلك لأنه يحتاج إلى أن يتعرض لثقافة أطفال

الشوارع ، وان يتأثر بهم ويتعلم منهم ، أي انه - باختصار- لابد أن يمر بعملية تنشئة اجتماعية ، تعيد تكوين اتجاهاته ونظراته إلى العالم ، ومنظومات قيمة ، وبالتالي اعتقاداته وتقويمه لحياته الأسرية . إن الثقافة الفرعية لأطفال الشوارع، ليست مجرد رموز ، لغوية ، يتعاملون بها مع بعضهم، ومع الآخرين ، وليست مجرد سمات من الإساءة في السلوك الظاهرة عليهم ، أو القدرة على الخداع والتلف وامتلاك إمكانية المراوغة و الاختفاء بعيداً عن أعين الشرطة والأسرة والمعارف ، إنها أكثر من ذلك كله . لان الثقافة : أية ثقافة ، هي مخطط للحياة ، وهي نظرة معينة نحو العالم ، تتضمن مسوغات للسلوك ، ووسائل عقاب وثواب ، وطرق لحل المشكلات . فالطفل المشرد ، يعتقد إن العالم ضده ، وان أعظم خطر عليه هو أن يعود إلى أسرته ، لان هذه الأسرة ، ما إن تكون مفككة أو مرهقة بالفقر ، أو تواجهه بالعنف ، وبالتالي فهو يحاول إن يكسر حاجز الأسرة ، بكل ما يعنيه من ضوابط وقيم والتزامات ، ويندفع نحو الشارع ، فيجلس هنا وهناك ، ويرى غيره من الأطفال يتسول ، أخر يمارس النشل والبغاء . وفي كثير من الأحيان يرجع إلى البيت خائفاً، أو تجده الشرطة على قارعة الطريق ،لأنه لا يمتلك (المهارات) اللازمة ، التي تمكنه من العيش في الشارع غير إن التحول المهم يحدث حين يلتقي بواحد أو أكثر من أطفال الشوارع إذ مع هذا اللقاء تبدأ في الوقت نفسه عملية استدخال لقيم جديدة تسوغ التشرد ، والانقطاع عن الأسرة . لقد أظهرت دراسة عن الابغياء من الذكور أن ٩٥% منهم وجدوا من السهل لهم الممارسة (٢٠) أي وجدوا من اوجد لهم مجموعة من القيم التي تبرر الممارسة والانحراف ، مثل الحصول على المال والتحرر من ضغوط الأسرة إلى غير ذلك من المبررات التي تعد احد العناصر المهمة ، للثقافة الفرعية المضادة .

١٨. د. السيد علي شتا ، علم الاجتماع الجناحي (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٧)، ص ٥٦-٥٥ .
 ١٩. راجع تفاصيل في: كريم محمد حمزة، البغاء السري في بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٧٤، ص ٩٥-٩٦.
 ٢٠. نفس المصدر ، ص ٢١٤ .

فالمشرد يحتاج إلى نوع من (احترام الذات) ، و التحرر من الشعور بالذنب تجاه الأسرة ، وهو لا يحصل على ذلك إلا من خلال مبررات الثقافة الفرعية للجماعة المرجعة أو جماعة الأقران المشردين . إن عالم أطفال الشوارع ،ليس عالماً سهلاً ، وكما ذكر عالم الاجتماع الرمزي ، هومانز ، إن المرء ما أن يخرج يديه من قيد (الأسرة) حتى يضعها في قيد آخر . فلحرية التي يوحى بها الشارع وهمية تماماً. و الجماعة المرجعية لأطفال الشوارع تنطوي على توزيع متفاوت جداً للسلطة ، يقوم على أساس متغيرات عديدة متداخلة ، لعل أهمها :-

- العمر: فالأكبر سناً غالباً ما يهيمن على الأصغر سناً.
 - الجنس: فالذكور يهيمنون على الإناث ، مع ملاحظة إن عالم الإناث لا يتدخل دائماً مع عالم الذكور .
 - الصكار : وهو (القائد) أو (المهيمن) على الجماعة أما لسبب سنة أو قدراته العضلية أو صلاته بأجهزة الشرطة و الأمن أو إمكانية حصوله على المخدرات .
 - البندرجي :وهو الذي يورد المخدرات (مثل حبوب الفاليوم أو الارتين ، أو الثتر أو السيكوتين وغيرها) .
 - الذي يملك مهارات معينة مثل: النشل والسرقة والاتصال ببعض العصابات.
- إن بعض البيانات الميدانية تظهر إن ثقافة أطفال الشوارع ليست منقطعة عن ثقافة السجون و الإصلاحيات. (٢١) إن الثقافة الفرعية المضادة للتشرد و المشردين، لم تدرس في العراق،

بل إن أغلب الدراسات، إن لم نقل كلها تناولت حالات من نزلاء المؤسسات، ولم تدخل إلى عالم المشردين في الشارع. وهو كما اشرنا عالم خاص معقد، ينطوي على مظاهر قسوة شديدة لكثرة الوقت نفسه يؤمن للمشرد، بعض حاجاته الضرورية كالمأوى والحماية، وهو بالإضافة لذلك عالم له رموزه المظهرية التي تعكس نمطاً مميزاً لهوية المشرد. فهو في الغالب قذر رث المظهر، طويل شعر الرأس، توجي ملامحه بالقسوة، يتصنع المسكنة والانكسار، حتى يمارس التسول، وقد يتصنع عاهة معينة، لكي يخطى بعطف الناس. كل ذلك إلى جانب الرموز اللغوية التي اشرنا إليها. وتتميز هذه الثقافة الفرعية -أيضا- بكونها تحت على أنماط من السلوك والتصرفات يعدها المجتمع انحرافية ومحتقره مثل البغاء المثلي، وتناول المخدر، بل إن السمة الأكثر انتشاراً والتي تشمل كل المشردين تقريباً هي الممارسة الجنسية المثلية، سواء فيما بينهم أو مع آخرين مقابل ثمن، ولذلك لا يستبعد أن يصاب كثير منهم ببعض الأمراض الجنسية أو غير الجنسية. إن أهم سلبيات العمل المؤسسي الإصلاحية للمشردين يتمثل في عدم الإحاطة الشاملة بطبيعة الجماعة المرجعية للمشرد، وبخصائص الثقافة الفرعية المضادة للتشرد، إن قوة الشارع الجاذبة أكبر بكثير من قوة المؤسسة الإيوائية أو الإصلاحية إذ مع إن المشرد قد يبقى في المؤسسة لعدة أسابيع، وربما لعدة أشهر إلا إن حنينه ألقها الشارع يبقى قوياً وقد يدفعه إلى مغادرة المؤسسة هرباً.

٢١. راجع عبد السلام نعمة جنزير الاسدي، ثقافة السجن، دراسة ميدانية انثروبولوجية /أطروحة دكتوراه /غير منشورة /جامعة بغداد /كلية الآداب /٢٠٠٣/ص ١١٠ وما بعدها.

إن لدينا تقريراً قصيراً لليونيسيف عن طفلة مشردة اسمها زمان، عمرها (١٢) سنة يظهر هذا التقرير بعض جوانب أو خصائص الجماعة المرجعية، والسمات الثقافية والفرعية لها فهذه الطفلة تعيش في الشارع منذ أن وقع الاحتلال، وقبل ذلك كانت تتسول في الشارع ثم تبيت مع والدها في الليل. والى أن تم نقلها إلى بيت مؤقت في الكرادة (داخل) من قبل منظمة أصوات في البرية: (Voices in The Wilderness) كانت جزءاً وعضواً في عصابة (Street Gang) تعيش قرب احد فنادق الدرجة الأولى، وسط بغداد، وتضم العصابة أطفالاً في أعمار تبدأ من السابعة حتى ما يزيد على العشرين سنة. وكان معظمهم من الذكور، إلا أن بينهم ثلاث إناث تتراوح أعمارهن بين ١٠-١٧ سنة وكانت هناك طفلة رابعة اختفت، ويقال أنها عادت إلى بيتها. لقد تعرضت الطفلة زمان للاغتصاب، وكذلك إحدى زميلاتها، لأكثر من مرة من قبل المشردين، الأكبر سناً، المتواجدين في الشارع وقد اغتصبت الطفلة بعد أن أعطيت مخدراً وتستعمل هذه الطفلة وكما الآخرين، أنواعاً متعددة من المخدرات. ويوصف التقرير تناول المخدر بأنه جزء من نشاط الحياة اليومية، تماماً مثل وجبة الغذاء كذلك يصف التقرير، كيف يقوم اللصوص المشردين من كبار السن بتوجيه الأصغر سناً، وكيف إنهم يحملون ويستعملون السكاكين وما أشبه، وإنهم منعوا الطفلة بالتهديد من اللجوء إلى البيت للأطفال (٢٢) وهكذا يتميز الشارع بقوة تحت على مواصلة التشرد بالإقناع أو بالقسر.

وأخيراً: خصائص أطفال الشوارع

اشرنا إلى إننا نفتقر إلى دراسات ميدانية ، تتناول المشردين في الشارع ، وليسو كنزلاء ، في المؤسسات ، ذلك أن المشرد يتميز بقدرة عالية على التلفيق . فهو غالباً ما (يؤلف) قصة عن أهلة وأسباب هروبه ، ووضعه الحالي ، وهو يرددها لتحقيق أهداف متعددة ، منها كسب عطف الآخرين ، أو لكي لا يعود إلى أسرته ، أو لكي يحقق منزلة أعلى بين أقرانه . ومن ثم فإن كثيراً من البيانات التي يحصل عليها الباحثون قد لا تكون دقيقة تماماً ومع ذلك فهي مفيدة على كل حال .

١ . يمكن القول ابتداءً ، وكأساس لكل معلومة أتية ، أن التشرد هو ظاهرة حضرية ، بمعنى إنها توجد في المدن ولا توجد في الأرياف ، كذلك فإن لمعظم المشردين أصول حضرية أي أنهم في مراكز محافظات وليسوا من سكان الأرياف . والتفسير معروف تماماً ، ففي الريف ما زالت الضوابط الاجتماعية قوية ، وما زال طابع التكافل الاجتماعي العشائري و الأسري قائماً . أما المدينة، فهي أولاً توفر طابع المجهول، إلى جانب سعة رقعتها، وتعظم الروح الفردية التعاقدية الثانوية.

UNICEF Report – ZEMAN , 12, Morning Star @ Tribune .

٢٢. راجع

– ونشره نصاً : تقرير الجمعية العراقية للتنمية والأعمار .

لقد أظهرت إحدى الدراسات ، أن (٦٠%) من نزلاء بيت الطفل في المسيح ، والبالغ عددهم (٥٠) مشرداً، هم من بغداد ، مقابل (١٠%) من كربلاء (٢٣). كما اظهر بحث آخر إن (٨٦%) من متسولين ، درسوا في بغداد هم من سكنة المحافظات ، مقابل (١٠%) من الاقضية (٢٤) وقد اظهر بحث آخر عن المشردين ، إن (٩١،٧%) منهم هم من مراكز المحافظات ، وإن (٨،٣%) من الاقضية ، ولا يوجد احد من القرى او النواحي (٢٥) . كما اظهر بحث للأستاذ جعفر عبد الامير الياسيني ، إن (٦٧،٤%) ، من الذين القي القبض عليهم ، كانت أسرهم تقيم في بغداد ، مقابل (٨،١٤%) في البصرة ، و(٣،٧%) في التأميم . وكانت الدراسة قد أظهرت إن (٤٩،٦%) من المشردين او سيئي السلوك كانت ولادتهم في بغداد ، وما بين (٤٩،٦%) ، و (٦٧،٤%) ، يظهر اثر الهجرة الداخلية (٢٦) . والملاحظة الأخيرة تعني إن علينا إن نهتم ، بعامل الهجرة الداخلية ، ذلك أن اسر المهاجرين غالباً ما تواجه ضغوط الحياة الحضرية ، وقد تفشل في التكيف معها . فتصبح بالتالي من سكان ما يسميه علماء الاجتماع الحضري – مناطق اليأس – في المدن. وهي مناطق الفقراء و المهمشين ، الذين يشعرون إن الأبواب موصدة أمامهم من حيث فرص العمل على وجه الخصوص ، ومن حيث استعداداتهم ، وقدراتهم للمشاركة في أوجه نشاط المجتمع السياسية و الاجتماعية و الثقافية وغيرها .

٢ . كل الدراسات تتفق على إن النسبة الأعلى من المشردين ، هي للذكور مقابل نسب اقل بكثير للإناث (٦٢%) مقابل (٣٨%) ، او (ثلث مقابل الثلثين) او (٨٢%) مقابل (١٨%) ، او (٦٦،٧%) للذكور مقابل (٣٣،٣%) للإناث (*) . ولهذه النتائج أسباب معلومة . فالأنثى في مجتمعنا غالباً ما تخضع لضوابط اشد من تلك التي يخضع لها الطفل الذكر وتتميز الأسرة الأبوية ، عموماً برقابتها الشديدة على الإناث ، غير أن الملاحظات الميدانية التي يمكن للباحث أن يسجلها عن ظواهر كالتسول مثلاً يفيد

بازدياد أعداد الإناث المتسولات اللواتي ، يمارسن هذا السلوك ولكن مع بعض من ذويهن كإخوتهن أو أمهاتهن أو آبائهن. وهن في الغالب يرجعن في بيوتهن بعد القيام بذلك الفعل على مدار اليوم ويلاحظ أيضاً، أن الفتيات ، خصوصاً اللواتي تزيد أعمارهن على العشر سنوات غالباً ما يتم اصطيادهن من قبل السماسرة ، وعصابات البغاء .

٢٣. رقية نجم محمد الخفاجي ، الطفولة المشردة ، بحث ميداني عن بيت الطفل في بغداد ، وزارة العمل و الشؤون الاجتماعية ، قسم دور الدولة (بغداد : ٢٠٠٤) ، ص ٦٨ .
٢٤. د. عبد الطيف العاني ، و د. نبيل نعمان إسماعيل ، ظاهرة التسول ، دراسة ميدانية في مدينة بغداد ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات (بغداد : ١٩٩٨) ، ص ٨ .
٢٥. فجر جودة علوان ، وجميل مهدي محمد ، ظاهرة تشرد الأحداث ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات ، ١٩٨٦ ، ص ٢٦ .
٢٦. راجع : د. جعفر عبد الأمير الياسين ، مصدر سابق ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .
- (*) يمكن مراجعة الدراسات السابقة .

٣. كل الدراسات تشير إلى أن المشردين يتميزون بمستويات دراسية واطنة أو إنهم أميون تماماً ، ففي دراسة عن المشردين النزلاء في بيت الطفل ، تبين أن ٦٠% منهم أميون و ٨٣% منهم بمستوى الابتدائية . وفي دراسة أخرى تبين إن ٨٦% منهم أميون أو يقرءون ويكتبون فقط . وفي دراسة ثالثة ، أن حوالي ٩٥% أميون أو دون مستوى الشهادة الابتدائية . (٢٧)

أن تفسير هذه النتائج يرجع الى :-

- أ- اضطراب الطفل للعمل لتوفير دخل إضافي لأسرته .
 - ب- فشلة للتواصل في المدرسة او تعرضه للعنف فيها .
 - ج- عدم اهتمام أسرته في إرساله أصلاً إلى المدرسة ، او عدم متابعة دراسته .
 - د- أصدقاء السوء الذين يحرضونه على ترك المدرسة او الهروب منها .
٤. لا تقدم لنا البحوث المتاحة بيانات دقيقة حول أعمار المبحوثين فبعضها أورد نسباً مئوية للفئات العمرية ، دون إن تقدم معدلات او متوسطات حسابية ومعاملات تشتت . ففي إحدى هذه الدراسات أشير إلى إن (٤٤%) منهم تتراوح أعمارهم بين ١٠-١٢ سنة. و ٣٠% تتراوح بين ١٢-١٤ سنة و ١٤% بين ١٤-١٦ سنة . وفي دراسة ثالثة تبين أن أعلى نسبة هي للفئة العمرية ١٥-١٦ سنة إذ تبلغ (٣٧،٣%) مقابل (٢١،٥%) للفئة العمرية ١١-١٢ سنة . أما اقل النسب فتمثل الفئة العمرية ٧-٨ سنوات ، وتبلغ (٥،٩%) (٢٨) . و الواقع أن الأطفال دون سن (٨) سنوات غالباً ما يخيفهم الشارع ويأخذ تشردهم طابعاً تدريجياً، حتى يتعود على المخاطر، ويتكيفون لظروف عيشهم الجديدة. وهم غالباً ما يقعون في شباك المشردين الأكبر سناً، فيخضعون للعنف الجسدي والجنسي، ويجبرون على ممارسة التسول. كذلك تظهر ملاحظات أحياناً نسب الإناث في الفئات العمرية الصغيرة (١٠ سنوات فأقل) ، غالباً ما تكون اقل بالمقارنة مع الذكور .

٥. فيما يتعلق بالبيانات الخاصة بالأسرة، تبدو البيانات التي يقدمها المشردون مضللة إلى درجة كبيرة، فهم في الغالب يضعون اللوم في تشردهم على أسرهم . وكما اشرنا فان معظمهم يلفق قصة يحفظها ويكررها. ولعلنا إذا حللنا مضمون بعض هذه القصص فسوف نجد ، أن هناك عناصر متشابهة بينهم رغم تعدد اختلاف الرواة من المشردين . (*) ولعل من أهم هذه العناصر :-
- أ- إن المشرد كان في أسرته يواجه حالات صعبة من العنف والإساءة و الإهمال.
- ب- إن الأب (شهيد) او (مفقود)، وان الأم متزوجة من رجل قاس وإنها لا تهتم به. إما إذا كان الأب موجوداً ، ولكنه تزوج من امرأة أخرى فأن هذه الأخيرة تطردهم وتسيء إليهم .
- ج- إنهم من عوائل فقيرة جداً ولا توفر لهم الحدود الدنيا من وسائل العيش .

٢٧. رقية الخفاجي، ص ١٠ . د. عبد الطيف العاني ود. نبيل نعمان إسماعيل، ص ١٣ .
 كذلك : جعفر عبد الأمير الياسين ، ص ١٩٢ .
 ٢٨. راجع الدراسات الثلاث المذكورة في الصفحات: ١٨٤/٧/١٢ على التوالي .
 (*) هذه القصص استقيناها ميدانياً من المشردتين وثلاث مشردين.

- د- أما بالنسبة للإناث فتتردد بينهن قصصاً عن محاولات لإجبارهن على الزواج من أشخاص غير مرغوب بهم (كبار السن مثلاً) او إنهن تعرضن للاعتداءات من احد محارمهن ، او إن إحدى قريباتهن أغرتهن بالهرب من البيت .
- هـ- انه لا يطبق المدرسة لكن أهله يجبرونه على المواظبة فيها ، كما إن معلميه يعاملونه بقسوة فائقة .
- إن هذه العناصر التي تتردد في القصص تقوم على مبدأ إن المشرد ضحية أخرى او ضحية ظروف قاسية لم يكن له قبل على احتمالها . ومن المؤكد أن ذلك المبدأ يستهدف تسوية عملية التشرد من جهة ، ومحاولة اكتساب احترام تعاطف من يستمع لهذه القصص من جهة أخرى . ويلاحظ المهتمون بقضايا المشردين إنهم يصرون طويلاً على قصصهم ويحرصون على أن تبقى الحقائق عن أسرهم غير معروفه .
٦. مع إن بعض المشردين يتخفون بكل طريقة ممكنة لكي لا تعثر عليهم أسرهم ، فباتهم حتى حين يجبرون على العودة إلى أسرهم لا يلبثون كثيراً ، حتى يهربون مرة أخرى . وحين يتكرر الأمر تجد الأسرة نفسها يائسة منهم فتتركهم لمصائرهم ، وقد يكون هناك استثناء نسبي للإناث اللواتي يقتلن غسلاً للعار ، او إن أسرهن تواصل البحث عنهن مرة أخرى .
- لقد أتيت لي أن اطلع تفصيلاً على حياة مشردة تبلغ من العمر (١٧) سنة ، هربت من أسرتها مرات عديدة ، وكانت الأسرة تفعل المستحيل لكي تعثر عليها وتعيدها وحين نجحت الأسرة من منعها من الهرب حاولت الانتحار. وقد فسر الطبيب النفسي الذي عرضت عليه الفتاة ، حالتها بأنها تعاني من عقد الشعور بالاضطهاد الذي يحولها أحياناً إلى إنسان عدواني وإنها أحياناً تحول مشاعرها العدوانية إلى عملية انتقام من أهلها عن طريق الهرب منهم ووضعهم في موقف حرج أمام الناس .

- أما المشردة الثانية : التي قابلتها فقد كانت ابنة رجل قاس بالفعل ، تزوج من امرأة أخرى بعد وفاة زوجته الأولى ، وأساء كثيراً إلى ابنته ، حتى انه طردها مرات عديدة ، وقد تعرضت للاغتصاب . وحين أعيدت من قبل الشرطة إلى (بيت أبيها) ، اضطرت للهرب مرة أخرى بعد أن أدركت أنها حامل ، وقد حاولت هي الأخرى الانتحار ، ولم تنجح .

والواقع إن معظم المشردين ، رغم محاولاتهم الظهور بمظهر المسكين الذي يطلب عطف الآخرين ومساعدتهم ، فإنهم عدوانيون تجاه أنفسهم وتجاه الآخرين، ويبدو ذلك واضحاً حين يقدم احدهم على استعمال (الموس) لتمزيق الجزء الخارجي من بطنه ، او حين يحاول إيذاء زميله ، او خداع شخص يحاول أن يستغله جنسياً ، إن لأحوال النفسية للمشردين لم تدرس بعناية .

خامساً: سؤال أخير: ما العمل

لم تكن الملاحظات التي أوردناها على امتداد صفحات هذه الدراسة سوى رؤية استطلاعية، لهذه المشكلة المعقدة ، ولا ندعي أننا قد أحطنا بها . فهي من السعة والتعقيد ما تعجز عنه دراسة واحدة او عدة دراسات محددة . والواقع إننا أردنا أن نلفت النظر إلى هذه المشكلة ، لعل دراسات الطلاب العليا ، او الباحثين الاكاديميين يتصدون لدراستها بشكل معمق . ومع إن دراستنا استطلاعية فان من المفيد إن نطرح على أنفسنا سؤالا يتعلق بالإجراءات التي ينبغي اتخاذها . هناك بالطبع إجراءات اتخذت ، وتتخذ اليوم أيضاً ، يمكن تحديدها ابتداءً فيما يأتي :-

- ١ . لدينا مؤسسات خاصة ، إيوائية وغير إيوائية للمشردين .
 - ٢ . إن جهد وزارة العمل والشؤون الاجتماعية يتداخل ويتفاعل مع جهد المنظمات غير الحكومية لمواجهة مشكلة التشرد وأطفال الشوارع .
 - ٣ . لدينا شرطة أحداث .
 - ٤ . هناك وسائل إعلام تحث على الاهتمام بمشكلة أطفال الشوارع تدعمها بشكل او بآخر مؤسسات دولية مثل اليونيسيف .
- وفي مقابل هذه الإجراءات لا بد من طرح أسئلة أخرى مهمة ، هل أن مشكلة أطفال الشوارع مرشحة للزيادة والانتشار ؟ أم إنها في توقعاتنا عن إعادة أعمار العراق ؟ والدخول إلى معترك السوق الحرة و الاقتصاد الليبرالي المنفتح ، ستميل إلى الضمور ؟ وخصوصاً بعد أن أصبح المجتمع المدني في العراق شريكاً للدولة والسوق في إدارة المجتمع ؟ نحن نميل إلى تأكيد فرضية مفادها إن مشكلة أطفال الشوارع سوف تتسع جغرافياً، وبشرياً. أي إننا سنشهد المزيد من الضحايا، ونشهد المزيد من الانتشار على وقعة المجتمع

العراقي، مع ملاحظة أن جهودنا البحثية تتركز على العاصمة بغداد. أما المحافظات الأخرى فنحن نجهل إلى حد كبير أوضاع المشردين فيها من حيث أعدادهم ، وتوزيعهم الجنسي ، وفئاتهم العمرية وغير ذلك . ولكن لماذا هذا التوقع ؟

١. بما إن المشكلة حضرية الطابع، وبما أن هناك المزيد من الحراك البشري من الأرياف إلى المدن ، وخصوصاً بعد إلغاء شرط السكن طبقاً لإحصاء عام ١٩٥٧ ، فإن من المتوقع أن يتبع نطاق التحضر Urbani Zation ، بكل ما يعنيه وينطوي عليه من مشكلات معروفة .

٢. إن اقتصاد السوق سيترتب عليه بالضرورة تحجيم لدور الدولة الرعاية فالسوق لا يفهم غير الربح مهما كان الثمن الاجتماعي لذلك . وبمعنى آخر إن عمليات التثبيت الهيكلي و الخصخصة، وفرض الضرائب، سوف تعمق الفجوة بين الأغنياء و الفقراء، إذ لم تكن هناك مظلات أمان كافية.

٣. إن الحالة الأمنية المتدهورة لا تبشر بنهاية سريعة، وبالتالي فإن سلطات الضبط الرسمية وفي مقدمتها الشرطة ستظل مشغولة بقضايا أخرى ذات طابع سياسي إرهابي، ولن تهتم كثيراً بالقضايا ذات الطابع الاجتماعي.

٤. إن تدهور الاقتصاد العراقي لن يتوقف ، بسبب ضغوط الدين الخارجي ، وضعف الربح النفطي ، وتراجع الإنتاج الوطني ، مما يعني نسبة عالية من البطالة ، وتدهورا في الأجور ، وتراجعا في برامج رعاية الاجتماعية والصحية والمدرسية .

٥. إن بعض الظروف الحالية تمتد إلى سنوات سابقة، إذ فقدت الأوراق من الأسر أربابها، كشهداء وأسرى ومفقودين. أي أن الحروب أدت إلى اتساع ظاهرة التفكك الأسري ، وهو أمر ينعكس بالتأكد على الأطفال .

٦. إن مظلات الأمان الاجتماعي والاقتصادي الحالية ، مازالت محدودة الأثر ، وتحتاج إلى تفعيل . فاليوم يشهد المجتمع العراقي نشاط منظمات أجنبية . وهي قد أدت دورها ، وسوف ترحل ولا بد من إيجاد بدائل لها . (*)

٧. أن مؤسسات المشردين وخصوصاً أولئك التي تقع أعمارهم دون سن (١٨) سنة ، لا بد أن تتبنى شعار إعادة دمجهم بأسرهم كهدف استراتيجي لنشاطها ، أي أن لا تكون مجرد (مؤسسة للعاجزين) ، تأويهم وتطعمهم ، بدون هدف إصلاحي محدد . والواقع أن المؤسسات الحالية ، لم تحقق إلا القليل من عمليات إعادة دمج المشردين بأسرهم ، وهذا يعني إن تأثير هذه المؤسسات على المشكلة القائمة ، سواء من حيث الحجم او من حيث الانتشار ، لن يكون فعالاً .

٨. إن هناك نقصاً كبيراً جداً في معلوماتنا عن ظاهرة التشرد ، وأحوال المشردين الحقيقية في الشارع ، فنحن لا نملك إلا معلومات مستمدة من أطفال الشوارع ، او دعوا في مؤسسة إيوائية رسمية او شبة رسمية . وهذه المعلومات كما سبق مشكوك بصدقها. كما إن البحوث التي أجريت ، سواء تحت عنوان (المشردين) او (أطفال الشوارع) او المتسولين ، لا تمتلك المعايير العلمية الموضوعية الكافية التي تمكننا ، من الثقة بالنتائج التي تقدمها لنا . إن الجهل (النسبي على الأقل) بالظاهرة، يحد من إمكانية التعامل معها بطريقة فعالة.

٩. إن مؤسسات الاجتماعية تشغل باحثين اجتماعيين من الذكور والإناث لكن مشكلة أطفال الشوارع تحتاج في اعتقادنا إلى باحثين مدربين تدريباً خاصاً ، ليس لدينا منهم إلا القليل – إن وجدوا حقاً – والواقع أن وزارة العمل ، لم تحاول أن تنظم دورات متخصصة لمجموعة من الباحثين من ذوي الوظائف المتميزة .

كل الاعتبارات المذكورة وغيرها، مما لم تذكره توحى بان مشكلة أطفال الشوارع مرشحة للزيادة و الانتشار كجزء من شبكة معقدة من المشكلات المتداخلة التي يعاني فيها المجتمع العراقي، وهذا يعني في اعتقادنا إن علينا:

- أ- أن تعيد النظر بجوهر فلسفة العمل الاجتماعي في العراق.
- ب- أن نشخص بوضوح وظائف ومهام أطراف العمل الاجتماعي (الدولة ، منظمات ، المجتمع المدني ، الأشخاص ، الأسر ، فضلاً عن المؤسسة الاقتصادية او السوق) .

ج- أن لا تكون هناك فجوة بين العمل الاجتماعي وبين الجامعات ومراكز البحوث، فالبحث العلمي يقوم النشاط، ويطوره في الوقت نفسه.
إن أطفال الشوارع ، أطفالنا، وليس ثمة طفل وجد في الشارع لأسباب بايولوجية ، او وجد فيه لكي يبقى، فيه إلى الأبد. وصحيح إن هذه المشكلة -الظاهرة - موجودة في كل مجتمعات الأرض بدرجات مختلفة من الوضوح ، فإن بالإمكان الحد منها وخصوصاً إذا كان هناك اتصال وتفاعل بين أطراف العمل الاجتماعي المشار إليها. وإذا كانت بؤر الانحراف في (سراديب) المدينة خاضعة للرقابة يبدد عتمتها، ويكشف أسرارها ويحمي الضحايا الموجودين فيها .

(* هذه المنظمات تحول مؤسسات إيوانية للمشردين .

الخاتمة

لاندعي إن هذه الصفحات قد أمت بكل أبعاد وجوانب مشكلة أطفال الشوارع ، لكن ما يكفينا منها هو : إنها تسلط الضوء على بعض الإبعاد، وإنها تثير المزيد من الأسئلة كما إنها - في الوقت نفسه تؤكد حقيقة إن هذه المشكلة ، ينبغي أن تقع ضمن إطار مسؤولية اجتماعية تضامنية بين أطراف العمل الاجتماعي ، فضلاً عن كونها تنبه وتحذر من إن المشكلة مرشحة للتطور الكمي والانتشار الجغرافي . بل إننا نستطيع القول إن المشكلة موجودة اليوم في مدن العراق الكبرى البصرة و الموصل وغيرهما ، ولكن الدراسات حول انتشارها في محافظات غير بغداد محدود جداً ، إن لم تكن مفقودة تماماً .
أما التوصيات فإن مؤشراتنا قد وردت في الفقرة الأخيرة من الدراسة هذه ، ونرجو أن تكون مفيدة .

المصادر

أولاً: المصادر العربية

١. د. احمد زكي بدوي ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (بيروت : مكتبة لبنان، ١٩٧٨) .
٢. جامعة الدول العربية الأمانة العامة ، إدارة الأسرة والمرأة والطفولة /قسم الطفولة/خطة العمل العربية الثانية للطفولة /تونس، ٢٠٠٢ .
٣. جعفر عبد الأمير ، التشرذم وانحراف سلوك الصغار و الأحداث في العراق /أطروحة دكتوراه غير منشورة ، بغداد ، كلية الآداب ، ٢٠٠٢ .
٤. الجمعية العراقية للتنمية والأعمار ، أطفال الشوارع في بغداد /شباط ٢٠٠٤ .
٥. خوان سومافيا ، الأطفال الضائعون – في نشرة مسيرة الأمم /مكتب اليونسيف/عمان/٢٠٠٠
٦. رقية نجم محمد الخفاجي ، الطفولة المشردة /بحث ميداني عن بيت الطفل في بغداد/وزارة العمل والشؤون الاجتماعية /قسم دور الدولة /بغداد /٢٠٠٤ .
٧. سيد علي شتا ، علم الاجتماع الجنائي (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٧).
٨. د. عبد الطيف العاني و د. نبيل نعمان إسماعيل ، ظاهرة التسول : دراسة ميدانية في مدينة بغداد /مديرية الشرطة العامة /مركز البحوث والدراسات /بغداد /١٩٩٨ .
٩. عبد السلام نعمة جنزير الاسدي ، ثقافة السجن : دراسة ميدانية انثروبولوجية ، أطروحة دكتوراه غير منشورة /قسم الاجتماع /كلية الآداب /٢٠٠٣ .
١٠. فجر جودة علوان ، وجميل مهدي محمد ، ظاهرة تشرذم الأحداث /مديرية الشرطة العامة /البحوث والدراسات /١٩٨٦ .
١١. قانون رعاية الأحداث رقم ٧٦ لسنة ١٩٨٣، المادة (٢٤) ، الفقرة (أ) ، والفقرة (ج).
١٢. د. كريم محمد حمزة ، الحصار الاقتصادي ومشكلة الفقر (بغداد ، آذار ، ١٩٩٩).
١٣. د. كريم محمد حمزة ، البيغاء السري في بغداد /رسالة ماجستير غير منشورة /جامعة بغداد / كلية الآداب /١٩٧٤ .
١٤. الأمم المتحدة ، تقرير المؤتمر العالمي الرابع المعني بالمرأة /بيجين /١٥ /أيلول /سبتمبر /١٩٩٥ .
١٥. اليونسف ، اتفاقية حقوق الطفل والبرتوكولان الاختباران .

المراجع الأجنبية

- s1- Chon, A .K , Deling Uent Boys :The Culture of the Gang (New York :The Free Press ,1955 .
- 2- Dr.K. Hamazaowd and Dr. Yassean, A, Children Working Baghdad Streets –Baghdad2003).
- ٣- UNICEF Report –ZEMAN, 12 , Morning star and Tribune.

٤- **WWW.alriydh. np. Com.**